﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تختلف في الدُّنيا التَّوجُّهات، وتكثُر الآراء، والآخرةُ محلُّ الفصل، وفيها يكون الجزاء

لمّا انتهت قصَّة قارون بما فيها من العبر؛ ذكر سبحانه محلَّ الجزاء على الخير والشرّ، وأخبر أنَّ الفائز مَن حالُه بضدِّ حال قارون؛ حثًّا على التَّواضُع وخفضِ الجناح، وزجرًا عن الكبر والطَّلاح، وجاء ذكر الجنَّة بعنوان الدّار؛ مناسبةً لذكر الخسف بدار قارون؛ للمقابلةِ بين دارٍ زائلةٍ زائفةٍ ودارٍ باقيةٍ خالدة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُلُوًّا﴾: أصل (علو) يدلُّ على ارتفاعِ الشَّيء فوقَ شيءٍ تحَته، وسُموِّه عليه[2]. والعلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع[3]. سواءٌ كان العلوُّ حقيقيًّا أوْ مجازيًّا، ومنه العلوُّ بمعنى التَّكبُّر في الأرض[4]. والمقصود به في الآية: الرّفعةُ والاستكبارُ عن الإيمان، والاستطالةُ على المؤمنينَ، والتهاونُ بهم[5].

2) ﴿فَسَادًا﴾: أصل (فسد) يدلُّ على ذهابِ نفعِ الشَّيء المقصودِ منه بتلفِه وهلاكه، لحدَّةٍ ضارّةٍ تَسري في أثنائه[6]. والفسادُ: خروجُ الشَّيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج أوْ كثيرًا[7]. وهو نقيضُ الصَّلاح[8]. ويقال: فسَد يفسُد فسادًا، فهو فاسدٌ، وكذلك فَسُد

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 370، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 189.
(2) ابن فارس، المقاييس وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علو).
(3) ابن فارس، المجمل والراغب، المفردات: (علو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (علو).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 226، والقرطبي، أحكام القرآن: 13/ 320.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فسد).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (فسد).

الشيء فُسودًا، فهو فسيدٌ، وأفسدَهُ غيرُه يُفسدُهُ إفسادًا وفَسادًا[1]. والمفسدةُ: خلافُ المصلحة[2]. والمرادُ به في الآية: الظُّلمُ والعُدوانُ على النّاس كما أرادَ فرعونُ وقارون[3].

3) ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾: أصل (عقب) يدلُّ على "تأخيرِ شيءٍ، وإتيانه بعدَ غيره"[4]. وعاقبته: آخِرُه[5]. والعَقِب: مؤخَّرُ القدم، والعاقبُ: الذي يخلفُ مَن كان قبلَه في الخير، وكلُّ شيء خَلَف بعدَ شيء فهو عاقبٌ له[6]. والعاقبة والعُقبَى مختصّانِ بالثَّواب، والعاقبةُ إذا أُطلقَت اختصَّت بالثَّواب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وعند الإضافة قد تستعملُ في العقوبة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الروم: 10][7]. وأما العقوبةُ والمعاقبةُ والعقابُ فمختصّةٌ بالعذاب[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُنا المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة مبيِّنًا أنَّه قد جعلَ ثوابَ الآخرة ونعيمَها لعباده المتَّقين، وليس للمفسدينَ المتكبِّرينَ، فيقول: تلك الدّارُ العاليةُ الرّفيعةُ الَّتي سمعتَ خبرَها، وبلغَكَ وصفُها؛ نجعلُها دارَ خيرٍ ونعيمٍ لهؤلاء الَّذين لا يريدونَ تكبُّرًا في الأرض، ولا ظلمًا للنّاس بأخذِ أموالهم بغير حقٍّ، والعاقبةُ المحمودة وهي الجنَّةُ تكون لِمَنِ اتَّقى عقابَ اللّهِ فأدَّى أوامرَه واجتنبَ معاصيَه[9].

نعيمُ الآخرةِ لأهلِ الإيمانِ المتَّقين، وليس لأهلِ الإفسادِ المتكبِّرين

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (فسد).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 186، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 27.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل: (عقب).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقب).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقب).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 226، والمراغي، التفسير: 20/ 102 - 103.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة الفصل في الآية:

السّعادةُ الحقيقيّة بامتلاك الدّار الأبديَّة

أوثر فَصْلُ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ عن قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لكمال الانقطاع بين الجملةِ الخبرية والجملة الإنشائيّة؛ فقد أُريد أن تكونَ إخبارًا مستأنَفًا مِن الله تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ يُراد به إخبارُ جميعِ العالم أنَّ الآخرةَ أُعدَّتْ للَّذين لا يريدونَ علوًّا في الأرض ولا فسادًا، مع حضِّهم على السَّعي بحسب ما تضمَّنته الآية، وهذا الحضُّ يتضمَّن الإنحاءَ على حال قارونَ ونظرائه، والمعنى: أنَّ الآخرةَ ليست في شيءٍ مِن أمر قارونَ، إنَّما هي لَمَن صفتُهُ كذا وكذا[1]. فلمّا انتهتْ قصَّة قارونَ بما فيها من العِبَر من خيرٍ وشرٍّ، أُعقبتْ باستئناف كلامٍ عن الجزاء على الخير وضدِّه في الحياةِ الأبديَّة، وأنَّها مُعَدَّة للَّذينَ حالُهم بضدِّ حالِ قارون[2].

براعة التَّخلُّص في الآية:

العاقبة بآخر الحالَيْن، وخيرِ الدّارَيْن

لمّا ذكر سبحانه فيما تقدَّم قولَ أهلِ العلم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ذكر محلَّ ذلك الثَّواب بقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾[3]. وهذه الآيةُ كالتَّخلُّص مِن قصَّة موسى عليه السلام وقومِه مع قارونَ وقصةِ بغي قارونَ واستطالته عليهم، ثمَّ هلاكِه ونصرةِ أهل الحقِّ عليه، إلى قصَّة سيِّدنا ونبيِّنا محمَّد صلوات الله عليه وقصةِ أصحابه معَ قومه، واستطالةِ قومِه وإخراجهم إيّاه ﷺ من مسقطِ رأسِه، ثمَّ إعزازِ الله تعالى إيّاه بالإعادة إلى مكَّةَ وفتحه لها منصورًا مكرّمًا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: 85][4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 302، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 121.

ففي قصَّة قارون تحذيرٌ للباغين المعتدين، وما كان أكثرَهم في قوم النَّبيّ ﷺ! وتسليةٌ للنَّبيّ ﷺ بأنَّ الله مهلِكٌ عدوَّه، وناصرٌ نبيَّه، ومتمٌّ نورَه. وفي ذِكر مقالة الّذين أوتوا العلم وقيامِهم بواجب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ رفعةٌ لشأنِ الصَّحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، الذين استكبرَ السّادة الأغنياءُ من كفّار قريش أنْ يجالسوهم وأمروا النَّبيَّ ﷺ أنْ يطردهم.

وفيما خُتِمَت به قصَّة قارونَ بيانٌ لحقيقة الدُّنيا، وأنَّ المال ليس مقياسًا ولا دليلًا على رضا الله تعالى، بحيث يكون الغنيُّ مرضيًّا عنه والفقيرُ مسخوطًا عليه بل المقياس بالتَّقوى؛ لذلك كانت ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. وهذه العاقبة المحمودةُ تكون بآخر الحالَيْن، وخير الدّارَيْن، فآخر الحالَيْن أن يُرَدَّ النَّبيُّ ﷺ إلى مكَّة فاتحًا مقيمًا للدِّين، وهادمًا للشِّرك والكفر، وخير الدّارين فالوسيلة والفضيلة والدَّرجة العالية الرَّفيعة.

نكتة الابتداء باسم الإشارة:

التَّشويقُ إلى معرفة المشار إليه وجعلُه حاضرًا لكلّ ذي فهم، معظَّمًا عندَ كلّ ذي علم

ابتُدئ الكلامُ بابتداءٍ مشوّق، وهو اسمُ الإشارة إلى غير مذكورٍ من قبل؛ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا﴾؛ ليستشرفَ السّامعُ إلى معرفةِ المشار إليه، فيعقبُه بيانُه بالاسم المعرَّفِ باللّام الواقعِ بيانًا أوْ بدلًا من اسمِ الإشارة[1]، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ يعني: الجنَّة. وقال ذلك على جهةِ التَّعظيم لها والتَّفخيم لشأنها[2]؛ فإنَّ في الإشارةِ إلى الجنَّة بإشارةِ البعيد ﴿تِلۡكَ﴾ تعظيمًا لها وتفخيمًا؛ إذ معنى البُعدِ في الإشارة إلى الممدوح بُعدُ المنزلةِ وعُلوُّ القدْر[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 320.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 280.

نكتة الإشارة إلى المحتجِب عن المخاطَب:

تنزيلٌ للمشهور منـزلةَ المشاهَد المحسوس

أُشير إلى الجنَّة - وهي غيرُ مرئيَّةٍ للمخاطَب - في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ لشهرتها، وتنزيلًا لها منزلةَ المحسوس المشاهَد، المنظورِ بكلِّ عين، الحاضرِ في كلِّ قلب، العظيمِ الشَّأن، البعيدِ الصِّيت، العليِّ المرتبة، الّذي سُمِعت أخبارُه، وطنَّت على الآذان أوصافُه وآثارُه[1]. وفي تنزيلِ غيرِ المشاهَد المحسوس منزلةَ المحسوس ردٌّ على المنكرينَ والجاحدينَ بأنهم لو استعملوا عقولَهم لما نفَوها وأنكروها.

دلالةُ كاف الخطاب في ﴿تِلۡكَ﴾:

المخاطَبُ هو كلُّ سامـع أوْ هو النَّبيُّ مبلِّغًا كلَّ سامع

(كاف الخطاب) الذي في اسم الإشارة من قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ غيرُ مرادٍ به مخاطَبٌ معيّنٌ، فهو موجَّهٌ إلى كلِّ سامع من قرّاء القرآن، ويجوز أن يكونَ خطابًا للنَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ تبليغه إلى الأمَّة شأنَ جميعِ آي القرآن[2].

إيثار التَّعبير عن الجنَّة بالدّار الآخرة:

لا يستوي دارُ الـفـنـاء بـدارِ الخُلد والبقاء

عبّر النظمُ الجليل عن (الجنة) بلفظ ﴿ٱلدَّارُ﴾ الموصوف بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا﴾، وأصلُ الدّار: يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ وإحاطته به[3]. والدّار: محلُّ السُّكنَى، كقوله تعالى: ﴿*لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: 127]. والآخرة: مرادٌ به: الدّائمة؛ أي: التي لا دارَ بعدَها، فاللَّفظ مستعمَلٌ في صريحِ معناه وكنايته[4]. ولا حاجةَ إلى تقديرِ مضافٍ محذوفٍ في قوله: ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ أي: نعيمُ الدّار الآخرة، وهي الجنَّة، والبقاء فيها سرمدًا[5]، لأنَّ ﴿ٱلدَّارُ﴾ بتعريفِها بـ(أل الجنسية) الدالّةِ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 371، والهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 304.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(3) ابن فارس، المقاييس، وجبل، الاشتقاقي: (دور).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 330.

الكمالِ صارتْ علَمًا على الجنّة، فهي الدارُ الحقيقيّةُ الكاملةُ، لأنها التي لا يُفارقها من نزَلَها، بخلاف دورِ الدنيا التي يتحوّلُ عنها وتفنى هي أيضًا، وهي التي دلائلها أكثرُ مِن أنْ تُحصَر، وأوضحُ مِن أن تبيَّن وتُذكَر، والدّار الآخرة هي التي أُمِر قارون بابتغائها فأبى إلّا علوًّا وفسادًا[1]! وأمّا مناسبةُ ذكر الجنَّة بعنوان ﴿ٱلدَّارُ﴾ فلتقدُّم ذكرِ الخسفِ بدار قارون، للمقابلةِ بين دارٍ زائلةٍ ودارٍ خالدة[2]. وأفادَ وصفُ ﴿ٱلدَّارُ﴾ الكاملة الباقية بـ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ أنها دارٌ لا يعقبُها دار، وهو كنايةٌ عن دوامِها وعدمِ فنائها.

دلالة التَّعبير بالجعل من حيث مادَّته وصيغته:

جـعـلُ الـجـنَّـة للمتَّقين خلقُها لهم، وتهيئتها من أجلهم

عبر النظم الجليل عن تخصيص الجنة والدار الآخرة بالمؤمنين بلفظ (الجعل) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ لأنّ (جَعَلَ): يكون للتَّحويل والتَّهيئةِ على وضعٍ بإنشاء هيئةٍ جديدة، أوْ للخَلْق. ومعنى جعْلِ الجنَّة للَّذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا أنَّها خُلِقت من أجلهم، وأُعِدَّت خصوصًا لهم، وأنَّها مُلئت بألوان النَّعيم وصنوفِ اللَّذَّة من أجل إكرامهم، كما يشهد له قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: 133]. فالمرادُ تمكينُهم منها أتمَّ تمكين، نحو قولهم: جَعَلَ السُّلطانُ بلدَ كذا لفلان، فجعلُ الجنَّة لهم باعتبار أنَّهم أهلُها الأوَّلون وملوكُها السّابقون، وغيرهم إنَّما يَرِد عليهم، وينزل بهم[3]. فهي محضرةٌ لأجلهم، ليس لهم غيرها. وأمّا مَن عداهم فلهم أحوالٌ ذاتُ مراتب، أفصحَتْ عنها آياتٌ وأخبارٌ نبويَّة أخرى[4]. واختارَ صيغةَ المضارع الدالّةَ على التجدُّد والاستمرار للدلالةِ على أنَّ الجعلَ فيها والإعدادَ لها مستمرٌّ دائمٌ لا ينقطع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 371.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 331.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 189.

معنى (اللّام) الجارّة:

بـيـانُ عـظـيـم ثوابِ المتواضعينَ والمصلحين

استعمل النظمُ الكريم لامَ الجرِّ صلةً للفعل الموضوعِ للدَّلالةِ على الاختصاص، إمّا بالملكيَّة أوْ بغيرها[1] في قوله تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ لإفادة الاختصاصِ والاستحقاقِ إكرامًا وتفضُّلًا منه تعالى عليهم، إذ يخبر الله تعالى أنَّ الدّار الآخرة ونعيمَها المقيم الذي لا يحولُ ولا يزول، يجعلُها سبحانه لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ترفُّعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ فيهم[2]، فهي خالصة لهم[3]. ويمكنُ أنْ تكون اللامُ دالّةً على الغرض مع التخصيص؛ وفيه مزيدُ مدحٍ للمتواضعينَ لجناب الرحمن؛ إذ جعلَها لأجلهم ولمصلحتِهم ونفعِهم.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِه:

بيان العلّة في الحكم وإفادة التَّعميم، وما في التَّعريف من دلالات التَّفخيم والتَّعظيم

أوثر التَّعبير بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ لبيان أنَّ الوصف الذي تضمَّنته جملة الصِّلة، وهو عدم إرادة العلوّ في الأرض ولا الفساد هو العلَّة في الحكم؛ أي: فوزهم بهذه الجائزة العظيمة وهي الجنَّة. كما أنَّ في التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَته إشارةً إلى العموم المستفاد من الموصول، فإنَّ الكلام وإنْ كان عن علوّ فرعون وقارون وفسادِهما؛ فإنَّ التَّعبير بالموصول أفادَ عمومَ قصدِ هذا الموعد لكلِّ مَن لا يريدُ العلوَّ في الأرض ولا الفساد. ولا يخفى ما في التَّعريف بالموصوليَّة في سياق المدح من دلالته على التَّعظيم والتَّكريم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيّ:

التَّعبيرُ بالمضارعة يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، ولذا آثر النظمُ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 258.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 441.

الجليل التعبيرَ بالمضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والنَّفي هنا للمضارع هو نفيٌ لهذا المعنى؛ أي: التَّجدُّد والاستمرار، فيكون التَّقدير: تُجعَل الجنَّة للَّذين لا تتجدّد منهم إرادة العلوّ، لأنها لا تكون أصلًا، وإنْ تجدَّدتِ المغرياتُ بالدُّنيا، ولا تكون منهم إرادةُ الفساد، وإن تعدَّدت ألوانُ الفتن فيها. فكأنَّ نفيَ إرادة المتَّقين للسّوء يتجدَّد بتجدُّد الفتن التي يختبرهم الله تعالى بها، فهم مصرّون على عدم معصية ربِّهم، ثابتونَ على استقامتهم على الصِّراط، وحَنَفِهم عن الشُّبهات والشَّهوات. بقي أن النظم الكريم عبر عن حال المتمنّين لحال قارون سابقًا بأنهم: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، ثم أخبر هنا عن أنّ: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، فتكونُ إرادة الدنيا المنهيُّ عنها هي إرادتَها للعلوِّ والفساد تشبُّهًا بالمتكبّرين والفاسدين، وأمّا العملُ فيها والسّعيُ من أجل إعمارها فهو سبيلُ المؤمنين ومنهاجُ الصالحين.

يتجدَّد الزُّهد في العلوّ والفساد كلَّما تجدَّدت المغريات بهما

بلاغة الكناية عن نفي الفعل بنفي الإرادة:

في قوله تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لمْ يعلَّق الموعد بترك العلوّ والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميلِ القلوب إليهما، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: 113] فعلَّق الوعيد بالرُّكون[1]. فمعنى ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ كنايةٌ عن (لا يفعلون)؛ لأنَّ مَن لا يريدُ الفعل لا يفعلُه إلا مُكرَهًا[2]. وإنَّما أوثرَ تعليقُ الموعد بترك إرادتهما لا بتركِ أنفسهما لمزيدِ التَّحذير منهما[3]، ذلك أنَّه إذا كان تعليقُ حصولِ الفوز بالدّار الآخرة على مجرَّد الإرادة، فكيف بمَن باشرَ العلوَّ والفساد[4]؟! وفي هذا أيضًا مدحٌ

في تعليق الموعد بترك إرادة العلوّ والفساد زيادة تحذير، ومبالغة في التَّنفير

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 435، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 18.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 330.

للمتَّقين، فإذا كانوا لا إرادةَ لهم في العلوِّ في الأرض ولا في الإفساد، لزم من ذلك أنْ تكون إرادتُهم مصروفةً إلى الله تعالى، وأنْ يكون قصدهم الدّار الآخرة، وحالُهم التَّواضعَ لعباد الله سبحانه، والعملَ الصالح، والانقيادَ للحقِّ والإذعانَ له ولو على أنفسِهم، وهؤلاء هم المتَّقون الذين لهم العاقبة[1]. فالمقصودُ الأعظم هو طهارةُ القلب الذي عنه ينشأ عملُ الجوارح؛ تعظيمًا لضرر الفسادِ بالتَّنفير من كلِّ ما كان منه تسبُّبٌ فيه، إعلامًا بأنَّ النُّفوس ميّالةٌ إليه، نزّاعةٌ له، فمهما رتعت قريبًا منه اقتحمَتْه لا محالةَ[2].

نكتة تنكير ﴿عُلُوًّا﴾، و﴿فَسَادًا﴾:

إرادة التقليل والعموم لكلّ قول أوْ فعلٍ مذموم

عبّر النظمُ الكريم عن متعلَّق فعل الإرادة المنفيّ بأسلوب التنكير للفظَي ﴿عُلُوًّا﴾ و﴿فَسَادًا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، لإرادة التقليل؛ أي: لا يريدون شيئًا من العلوّ ولو قليلًا[3]. وإنَّ "ذِكر الفساد والعلوّ منكَّرَيْن في حيّز النَّفي يدلُّ على شمولهما لكلِّ ما يطلق عليه أنَّه فساد، وأنَّه علوٌّ من غير تخصيص بنوع خاصٍّ. أمّا الفساد فظاهر أنَّه لا يجوز شيءٌ منه كائنًا ما كان، وأمّا العلوُّ فالممنوع منه ما كان على طريقة التَّكبُّر على الغير، والتَّطاول على النّاس، وليس منه طلبُ العلوِّ في الحقِّ والرّياسة في الدِّين، ولا محبَّة اللِّباس الحَسَن، والمركوب الحَسَن، والمنزل الحَسَن"[4]. والحاصلُ أنَّ اللَّفظيْن عامّان لكلِّ مَن علا وأفسدَ[5]، شاملانِ لجميع المعاصي[6].

دلالة التقييدِ بالجارّ والمجرور:

مهما علا الإنسانُ فالأرض وعاءٌ له

قيّد النظم الجليل بالجارّ والمجرور العلوَّ المذكور في قوله تعالى:

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 371 - 372.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 217، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 156.
(5) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 47.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.

﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والأصلُ في تعدّي العلوّ أن يكون بـ(على) الدالّة على الاستعلاء، لكنه عدل عنها إلى ﴿فِي﴾ الموضوعة للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أوْ زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[1]. للإشارة إلى أن العلوَّ قد انتشرَ في أنحاءِ الأرض حتى دخلَ في جميع جوانبها وأنحائها، إذ يفيدُ الظرفُ الإحاطةَ والتمكُّنَ، كما أفادت الظَّرفيَّةُ في الآية الإشارةَ إلى أنَّ علوَّ الإنسان محدودٌ كقدرته، فمهما علا إنسانٌ فهو علوٌّ في الأرض، لا يخرج عن ظرفيَّتها. وأمّا معنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للاستغراق[2]، فتشمل عموم الأرض دون تخصيص شيء منها.

دلالة العطف والتكرار:

كـلٌّ مِـن العلوِّ والـفـسـاد مقصود بالنَّفي والإبعاد

عطفَ النظمُ الكريم مُكرّرًا النفيَ بـ(لا) في قوله تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: غلبة وتسلُّطًا، ولا ظلمًا وعدوانًا على العباد كدأب فرعون وقارون، وليس الموصول مخصوصًا بهما[3]. وقد جاء التَّركيب في الآية بـ(لا) في قوله ﷻ: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ دالًّا على أنَّ كلَّ واحدٍ مِن العلوِّ والفساد مقصودٌ بالنَّفي، لا مجموعُهما[4]؛ لأنَّ الطّاعة والإحسان هما الوضعُ الصَّحيح الذي يقتضيه النِّظامُ الكونيُّ، وتلتزمه الفِطَرُ السَّليمة. أمّا المعصيةُ والإساءة فهُما خروجٌ عن الطّاعة، وفسادٌ للنِّظام[5]. وفي عطفِ (الفساد) على (العلوّ) عطفُ اللّازم على الملزوم؛ إذ شأنُ العلوّ والاستكبار ميلُ الإنسان إلى الظُّلم والعُدوان، فبينهما تلازمٌ، كما أنَّ العلوَّ يتحقّقُ بالتكبُّر على الله والنّاس، والأوّل كفرٌ، وأمّا الفساد فهو يتعلّقُ بالدنيا وأحوالها، ولذا أخَّر الفسادَ على العلوِّ.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 330.
(5) محمد الخطيب، أوضح التفاسير: 1/ 480.

دلالة الوصل في الآية:

الوصلُ بما سبق، جامعٌ له ولما لحق

الجملةُ الاسميّةُ الخبريّة: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ معطوفٌ على الجملة الاسمية الخبريّة: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ﴾ فبينَهما كمالُ الاتّصال، وبه صارت جملةُ: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ كلُّها تذييلًا للقصة؛ لِما اشتملت عليه من إثباتِ الحكم للعامّ بالموصول مِن قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والمعرَّف بلام الاستغراق[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّة دونَ الفعليَّة:

الدَّلالةُ على الاستقامة والثَّبات، والاستمرارِ على التَّقوى لنيل العواقبِ المحمودات

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ "جملة اسميَّة تدلُّ على الاستقامة والثَّبات، والاستمرار على التَّقوى لنيل العاقبة"[2] ورفيع الدَّرجات. ذلك أنَّه لمّا تقدَّم شرحُ حال الخائفينَ من جلال الله تعالى، وأنَّهم لا تتحرَّك إرادتهم للعلوّ في الأرض ولا الفساد فيها فضلًا عن اقترافهما - أخبر سبحانه أنَّه دائمًا يجعلُ ظَفَرَهم آخرًا، فلذلك جاء التَّعبير بالاسميَّة دلالةً على الثَّبات والدَّوام[3].

بلاغةُ التذييل في قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

الفوزُ والظَّفر للجامعينَ بين التواضع والصَّلاح مع البشر

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ تذييل[4]، يدلُّ على أنَّ الفوزَ والظَّفَرَ كلَّه في التَّقوى. والمتَّقي هاهنا هو المتَّقي ما لا يرضاهُ الله تعالى عمومًا، ويدخلُ فيه دخولًا أوَّليًّا اتّقاءُ علوّ فرعون وفسادِ قارون بقرينة المقام. أوْ أنَّ المتَّقي مِن المؤمنين هو مَن لم يكن مثلَ فرعون في الاستكبار على الله تعالى بعدم امتثالِ أوامره، والارتداع عن زواجره، ولم يكن مثل قارونَ في إرادة الفسادِ في الأرض وإخراجِ كلِّ شيءٍ من كونه منتفَعًا به لا سيَّما نفسَه؛ فإنَّ غايةَ إفسادِها الامتناعُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(2) الهلال، الثري الجامع: 8/ 384.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 122، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.

مِن عبادةِ ربِّها لأنَّها خُلِقت للعبادة، فإذا امتنعَ عنها خرجتْ عن كونها مُنتفَعًا بها، وذلك معنى المتَّقي[1].

معنى التعريف في المسند إليه:

ما الدارُ الآخرة إلا العاقبة

عبّر النظمُ الجليل عن مصير المتقينَ بلفظِ (العاقبة)، وأنها لهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وأصلُ "العاقبة: وصفٌ عومِل معاملةَ الأسماء لكثرة الوصف به، وهي الحالة الآخِرةُ بعد حالةٍ سابقة، وغلبَ إطلاقُها على عاقبة الخير"[2]. فالتَّعريفُ فيها للعهد، إذ المرادُ بها هنا: الجنَّة[3]. وفي إيرادِ المبتدأ بلفظ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ بعد قوله ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بيانٌ للمراد بها، فالدارُ الآخرة المعبّر بها عن الجنةِ الدائميَّة التي لا دارَ للمرء بعدَها يسكنُها هي العاقبةُ التي تعقبُ كلَّ ما قبلها. كما أفاد التعبير بلفظ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ أيضًا الإشارةَ إلى تطمين المتقينَ بأنَّ الظّفر والفوز لهم مهما طالَ الظُّلمُ والبغيُ عليهم من المفسدين. بقي أنَّ التسميةَ بالوصف يدلُّ على تمحُّضِ ذلك الوصف للمسمَّى به؛ فالجنة هي التي يصحُّ أنْ تكون العاقبةَ والنتيجةَ النهائية لكلِّ صبر المتقين، والجائزةَ المعتبرةَ بعد كلِّ تلك التقوى وصورها.

معنى (اللّام)، و(أل) في: ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

العاقبة كائنةٌ على وجه الاختصاص للمتَّقين، مفضَّلين بها على العالمين

(اللّام) الجارّة حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى الاختصاص، وذلك إمّا بالملكيَّة أوْ بغيرها[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ أي: والعاقبةُ كائنةٌ على وجه الاختصاص والاستحقاق للمُتَّقين[5]، فهي لهم دائمًا في كلا الدّارين لا عليهم، ومن اللّام يُعرف أنَّها عاقبة محمودة[6]. "وعُلِم مِن هذا الحصر في الآية

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 190.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 638.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(5) الهلال، الثري الجامع: 8/ 384.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.

الكريمة أنَّ الّذين يريدون العلوَّ في الأرض أوِ الفسادَ ليس لهم في الدّار الآخرة نصيبٌ، ولا لهم منها نصيب"[1]. و(أل) في المتقين موصولةٌ بمعنى: الّذين يتّقون؛ ويراد بالموصول العمومُ لكلّ المتقين مع الكمالِ في التقوى، وفي الصِّلة تعليلٌ لكون العاقبة مختصّةً بهم، إذ التقوى سرُّ اختصاصِهم بالجنَّة والعاقبة.

نكتةُ الإظهار في مقامِ الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار، إذ مقتضى الظّاهر أن يقال: (والعاقبة لهم)؛ أي: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾، ولكنَّه أظهر تعميمًا وإعلامًا بالوصف الذي أثمرَ لهم ذلك[2].

التعميم، والإعلام بالوصف الذي أثمر لهم الفوز بالنَّعيم المقيم

وللإظهار في موضع الإضمار فوائدُ من أهمّها:

أولًا: التَّسجيل؛ أي: تحقيق اتّصاف محلِّ المضمَر بهذا الوصف، وأنَّه أهلٌ له؛ ومعنى ذلك: الحكمُ عليه به. فقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بدل (والعاقبة لهم) فقد أفاد بأنَّهم متَّقون.

ثانيًا: التَّعميم؛ أي عدمُ تخصيصِ الحكم بمرجع الضَّمير، فيؤخذُ منه تعميمُ الحكم بعموم علَّة الوصف، فيكون مقياسًا للمذكور وغيره ممَّن شاركَه في الوصف. وعليه فإنَّ العاقبة المحمودة عامَّة لكلِّ متَّقٍ لا يريدُ علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

ثالثًا: التَّعليل، وذلك لأنَّ الحكم إذا علِّق بوصف دلَّ على علِّيَّة ذلك الوصفِ فيه. فقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أفاد بأنَّهم نالوا ما نالوا من الدَّرجات الرَّفيعة بما هداهم الله تعالى إليه من التَّقوى.

رابعًا: التَّنبيه؛ أي: تنبيه المخاطَب؛ لأنَّه إذا جاء الكلام على خلاف السِّياق انتبه المخاطَب له[3].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 625.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 372.
(3) العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/ 201 - 202، وتفسير آل عمران: 2/ 312.

ويضاف إلى ما سبق أنَّ هذا الإظهار في قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه رعايةٌ للفاصلة، فتكاملَ حسنُ المعنى مع حُسن اللَّفظ وبراعةِ التَّركيب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العاقبة والمآل والمصير:

أصلُ العاقبة: كلُّ ما يأتي في عَقِب الشَّيء، أي: آخِره[1]، وعاقبةُ كلِّ شيء: آخِرُه[2]. ويختصّ إطلاقُ العاقبةِ معرَّفةً باللام بالثَّواب، نحوُ قول الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافة قد تُستعمَلُ في العقوبة، نحو قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم: 10][3]. وأمّا المَآل: فهو من الرُّجوع؛ يقال: آلَ الشَّيءُ يَؤُول أوْلًا ومَآلًا، أي: رجعَ[4]. وأمّا المصيرُ فجذرُه أصلٌ صحيحٌ وهو المَآل والمَرجِع[5]، ولكنَّ المَصيرَ يكون أيضًا بمعنى انقلاب الشيء إلى خلافِ الحال التي هو عليها[6].

أصلُ العاقبةِ كلُّ ما يأتي في آخرِ الشَّيء، والمَآلُ من الرُّجوع، وفي المَصير انقلابٌ إلى خلافِ الحال

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عقب).
(2) الخليل، العين: (عقب).
(3) الراغب، المفردات: (عقب).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (أول).
(5) ابن فارس، المقاييس: (صير).
(6) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 492.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»